العلم الوطني

" دراسة للشكل واللون "

الدكتور محمد خـــــان
فقسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم لاجتماعية
جامعة- محمد خيضر- بسكرة

ذات مساء مـــن ربيع عـــام 1962 ،ونحن أطفـــال إذ ذاك، كنا مجتمعين أمام الزاوية ننتظر موعد الدخول إلى الفترة الثانيـــة من نظام التعليم فـــي الكتاتيب، مر بقربنا جواد راكض يمتطي صهوته شاب يافع، بيده راية خفاقة، ذات أشكال لم نعهدها قبل. فهتف شيخنا قائلا: هذا هو العلم الجزائري! هذا الاستقلال الوطني!

من حينها تملكني شعور غامض لا أحسن وصفه، ولعلها المفاجأة العظيمة، عظمة ذلك اليوم المشهود – يوم النصر – عظمة الاستقلال الوطني الـــذي رمـــز إليـــه العلـــم الجزائري، المخالف لعلم الاستعمار الفرنسي الذي كنا نراه في غدونا ورواحنا. مرحى بالعلم الوطني، وطوبى للشعب العظيم، وطوبى لثورته العظيمة.

سأحاول في هذا المقام أن أجد تفسيرا لشكل العلم الوطني و ألوانه التي تتمازج فـــي سر عجيب ، فأوضح لنفسي – أولا – ما غمض عليها مـــدة عقـــود مـــن الزمن، وأحاول أن أشرك غـــيري فـــي فهمي لها- ثانيا- وذلك مـــن أجـــل ربط الصلات الوثقى بين الأجيال، جيل الأمـــس، و جيل اليـــوم، وجيل الغـــد، وربما كـــان كثيـــر مـــن أبناء الجـــزائر اليـــوم لا يـــدرون كـــيف تـــكونت هـــذه الرايـــة الـــتي ظهرت، وترسخت بفضل دماء الشهداء في مختلف الثورات التي قام بها أبناء هذا الوطن.

دسترة العلم الوطني

أقرت الجمعية الوطنية التأسيسية في الجزائر المستقلة موضوع العلم الوطني في 25/ 1963/4 بالقانون رقم 63/145 الذي يتضمن تحديد مواصفات هذا العلم (صدر القانون في الجريدة الرسمية بتاريخ 1963/4/30). جاء في ديباجته مايأتي: "إن العلم هو

رمز السيادة الوطنية. إن الجزائر أصبحت مستقلة، واعترفت بها هيئة الأمم المتحدة، فأصبح لزاما عليها أن تختار رسميا علمها الوطني (...) وهذا العلم موجود من قبل. إنه ذلك العلم الذي تبناه-تلقائيا- الشعب الجزائري في الأرياف كما في المدن، إنه ذلك العلم الذي رضي به الشهداء بالتضحية والاستشهاد من أجله، وتجمع خلفه كل المواطنين داخل وخارج الوطن".

وقد حددته المادة الأولى من هذا القانون بالنص: "العلم الوطني للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، ألوانه: الأخضر والأبيض تتوسطه نجمة وهلال أحمران. كما نص عليه أول دستور للجزائر صادق عليه المجلس الوطني بتاريخ 1963/8/28، ووافق عليه الشعب الجزائري في استفتاء 1963/9/8. وكان في المادة السادسة النص الآتي: علم الدولة أخضر وأبيض يتوسطه هلال ونجم أحمران.أما في دستور سنة 1976 فقد جاء في المادة الرابعة: النشيد الوطني، وخاصيات العلم، وخاتم الدولة، يحددها القانون. ونقل هذا النص في المادة الخامسة من دستور 1989 وكذلك نقل في المادة الخامسة من دستور 1996.

ومما يذكر في هذا الشأن أن القانون رقم 86/6 الصادر في 4 مارس 1986 قد ربط في مادته الثانية بين العلم والنشيد الوطنيين: إن النشيد الوطني مثل العلم الوطني رمز لوحدة الأمة، وتعبير عن وحدة الشعور، والتضحيات والمطامح، والقيم الخالدة للشعب الجزائري وثورته. وهكذا، فبدسترة العلم صار من رموز السيادة الوطنية، لذلك جرم المشرع كل مساس به بمقتضى قانون العقوبات المعدل رقم 82/2 الصادر في 13 فيفري 1982، حيث نصت المادة 160 مكرر" بتجريم فعل تمزيق أو تشويه أو تدنيس العلم الجزائري عمدا وعلانية، وتقرير عقوبة سجن من خمس إلى عشر سنوات.

العلم والألوان:

عرفت الراية كرمز لحامليها في الحروب منذ أقدم العصور، وما من أمة إلا ولها رايتها التي ترفعها في عز أيامها، وعنفوان دولتها، وسلطان قوتها، وتذود عنها

بدمائها، وتجعل منه علامة للاهتداء، ورمزا للحرية والسيادة، وبها تتواصل الأجيال للدفاع عنها، وتتواصى بالتضحية في سبيلها، فيشارك اللاحق السابق في مسيرة بناء الوطن، واستمرار وجوده.

وكان شعار العرب ذا أربعة ألوان: اللون الأبيض والأخضر والأسود، وهي ألوان ترمز لدولة الأمويين والعباسيين والفاطميين عبر مراحل الدولة العربية الإسلامية في مختلف عهودها. وإلى جانب هذا الألوان الثلاثة مثلث جانبي أحمر أضيف إليها ليكون رمزا لنزعة العرب التحررية.وهو علم الثورة العربية الكبرى.

لقد ظهر العلم الجزائري ذو اللون الأخضر في القرن (16) السادس عشر مخالفا لراية العثمانيين التي كانت حمراء، واستمر بذات اللون في دولة الأمير عبد القادر، وكذلك في الثورات الشعبية المتعددة التي كانت لا تنطفئ في منطقة حتى تشتعل في منطقة أخرى. فإذا ظنت فرنسا أنها قضت على المقاومة برز لها بطل آخر برجاله يدعو إلى الثورة ضد الاستعمار.

والعلم الوطني إنجاز جماعي، بفكر جمعي، وعمل جمعي، شأنه في ذلك شأن أمهات القضايا الكبرى التي لا يحق لأحد أن ينسبها لشخص أو عهد، وإذا أردنا ذلك واجهتنا شتى الاختلافات. ولكن من المؤكد أن الراية الجزائرية وليدة عهود، ومن صنع جماعات، فتسامت بتضحيات الأجيال، إذ ضرجتها دماء الشهداء الذين كانوا يدافعون عنها، وهم يموتون تحت ظلالها. لقد تدرجت في نشأتها خلال أحقاب زمنية بحسب تغلغل الروح الوطنية في نفوس المواطنين من أبناء الجزائر الذين ارتضوها رمزا لسيادتهم، يتوحدون حولها، ويموتون تحت ظلالها، ويهتفون بها حين تعلو خفاقة في أجواء السماء كالطائر الحر. إن العلم الجزائري قد اتخذ اللون الأخضر منذ زمن طويل، وظهر بكل وضوح ابتداء من دولة الأمير عبد القادر، وتواصل حضوره في الثورات الشعبية التي كانت تظهر هنا وهناك في أرض الوطن لمقاومة الاستعمار الفرنسي. وبحسب الوثائق المتوافرة لدينا يبدو أن أول ما ظهر الهلال والنجمة الخماسية كشعار لأبناء الجزائر، كان منذ تأسيس جريدة الأمة سنة 1930 في باريس، وهي جريدة شهرية

وطنيـــة سياسية للدفـــاع عـــن حقـــوق مسلمـــي أفـــريقيا الشماليـــة، و كـــان الهـــلال يتضمن آية قـــرآنية تدعـــو إلى الاتحاد، وهي قوله تعالـــى:﴿واعـــتصمـــوا بحبـــل الله جـــميعا ولا تـــفرقـــوا﴾ آل عمران 103.

يقول بلقاسم راجف، وهو أحـــد مناضلي حزب نجم شمال إفريقيا: كان المنطلق هو التفكير في اتخاذ علم وطني، له جذوره التاريخية والدينية والوطنية، فكـــان اللـــون الأخضر مستمـــدا مـــن رايـــة الأمير عبـــد القـــادر، وهـــو اللون المشهور في الإسلام، ثم كان اختيار اللون الأبيض، وبعده الهلال باللون الأحمـــر، وكذلك النجـــم. ويضيف مبديا رأيـــه في تنويع الألوان، فاللون الأبيض يرمز إلى الجزائر، واللون الأخضر يرمز إلى تونس، واللون الأحمر يرمـــز إلـــى مـــراكش: ومـــن هـــنا كـــان هـــذا العلم هو الجامع والداعي إلى وحدة المغرب العربي[2]. وفي نفس السياق يقول الـــمؤرخ محمد قنـــانش: إن نجـــم شمال إفـــريقيا قـــد اعتمد منذ البداية علما له على الشكل الآتي: رقعة خضراء مثبت في زاويتها العليا إلى اليسار هلال ونجمة باللون الأحمر، وهناك ظل للهلال والنجمة باللـــون الأبيض. وقد رفع هذا العلم فـــي مقـــر النجـــم فـــي بـــــاريس عنـــدما استقـــــل فـــي مبنـــى إداري لـــه سنة 1933. وقد رآه سكان الجزائر العاصمة في مظاهرات 14 جويلية 1937، ورآه سكـــــان وهـــران فـــــي تجمـــع 30 جويليـــــــة 1937. وظهر بشكله الحالي المعروف في مظاهـــرات 8 ماي 1945. وكان يحمله أول شهيـــــد يسقط فـــي سطيف (سعال بوزيد)، وكذلك كان في يد أول شهيد يسقط في قالمة (عبدة علي). ومـــن هـــذا التاريـــخ صـــار للعلـــم الجـــزائري قـــداســـة فـــــي نفـــوس الجزائـــريين، وتعلقـــوا بـــه بكـــل جوارحهـــم، وصاروا يتنافســـون فـــي حمله فـــي كـــل المناسبات. وكـــان مـــن أبـــرزها مظاهرات 11 دسمبر 1960 حيث كان في أيدي الكثير من المتظاهرين. وقد رسخت ثورة نوفمبر العظيمة (1954) مواصفات العلم الـــوطني فـــي نفوس كل الجزائريين ونقلوه مـــن مكان إلـــى آخـــر، وظهـــر فـــي البـــوادي والأريـــاف والقرى والمدن، ظهر فـــي كامل التراب الـــوطني، وفـــي الخارج، وفـــي كـــل تمثيليات الجزائر، واستشهد تحت

ظلاله مليون ونصف مليون من الشهداء. أولئك الذين ضحوا بأرواحهم من أجل أن يبقى مرفوعا فوق هامات الأحرار.

الإنسان والألوان:

إن الألوان تحيط بنا في كل جوانب حياتنا، ونستخدمها في كلامنا، ولباسنا وفراشنا، وفي منازلنا و جدرانها وستائرها، ونغيرها بحسب المواسم والفصول والمناسبات، ونتهادى بالورود والأزهار الملونة في مواقف عدة، وتتصاعد الأعلام الملونة في مبانيها، وهي ولا شك، ذات مرجعيات دينية ونفسية و اجتماعية و تاريخية.

يقول المنظرون المهتمون بالألوان:إن العقل البشري يفسر الألوان باعتبارها تشتمل على سبعة ظلال (أو هويات) رئيسة هي:الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والأبيض والأسود والبنفسجي، و يعتقد علماء النفس أن الألوان تؤثر في الإنسان بشكل مباشر[3]. فاللون الأحمر يحرك الطاقة، ويجددها اللون البرتقالي، واللون الأصفر يدل على الذكاء و الحكمة، واللون الأخضر يحفظ انضباط الذهن، كما يبعث على الراحة والاسترخاء، واللون الأزرق يعين على المواجهة الفكرية، واللون الأبيض يدل على الروح الإيجابية، والأسود دلالته سلبية، أما البنفسجي فهو لون روحي [4].

للألوان طاقات هائلة من الدلالات الرمزية والإيحائية يميل الإنسان إلى تفسيرها في ضوء علاقتها فيما بينها، وفي ضوء ما يحيط بها من أشياء متفاعلة معها." إن اللون الواحد قد تكون له أكثر من دلالة، وقد تكون له دلالات رمزية متعارضة كدلالة الموت والحياة في الوقت نفسه(...) فرمزية الألوان عموما فيها هذه الإشارة الخاصة للتعدد والتنوع والتجلي والخفاء في الوقت نفسه.هناك مثلا ألوان تؤكد الضوء أو النور الموجود في اللوحة، ألوان كالبرتقالي والأحمر والأصفر مثلا، وهي ألوان نشيطة قوية ساخنة دافئة متقدمة. وهناك أيضا ألوان تمتص الضوء، كالأزرق والبنفسجي ألوان باردة، سلبية، متراجعة بينما يعمل اللون الأخضر عملا مزدوجا، فهو لون بارد، ودافئ في

الـــوقت نفســـه ، يـــرمـــز إلـــى الحياة وإلى احتمالات نهايات الحياة في الوقت نفســـه، يمتص الضـــوء، ويؤكـــده فـــي الوقت نفسه، وبدرجات متنوعة يقوم الأبيض والأســـود بهذه الـــوظائف المزدوجـــة، فهما يمثلان الإيجابي و السلبي، الحياة والموت في الوقت نفسه" (5).

ويرى بعضهم" أن الإيحاءات اللونية هي محض الطباعات فردية ترتبط بذكريات، وأحـــداث، ومـــواقف خاصـــة، ولا تمثل قـــاعـــدة مـــوضـــوعيـــة تصلـــح للتطبيـــق فـــي كـــل المجالات" (6).

إن اللون عنصر أساسي في الكون، وهـــو مـــن المدركـــات البصريـــة،(7) يستخدم معيارا للحكم على الأشياء، والفصل بينها، وله اتصال بالنفس البشرية فـــي مختلف شؤون حياتها، وقد عرفه الإنسان منذ القديم، عرفه في الطبيعة، فميـــز بيـــن هـــذا الـــلون، وذاك، فـــــرآه فـــي زرقـــة السماء، ولمعـــان نجـــومها، ورآه فـــي اخضرار الأرض، وتلون أزهارها.فأعجب بالألوان و فتنته، واستخدمها في شتى المجالات،فارتبطت بمشاعره، وأحاسيـــسه وصارت من خصائـــــص حياتـــه وأضحت ذات أبعاد نفسية ودينية واجتماعية وبيئية وسياسية.

لقد اكتسبت الألوان على مر العصور دلالات تمييزية في حياة الشعوب والأمم واستقرت مفاهيمها في ألفاظ معينة، تميز كل قوم بجانب منها نظرا لمستواهم الثقافي والحضاري، فمن أمثلة ذلك قولهم: القارة السمراء، والبحر الأسود والنهر الأسود (في أمريكا الجنوبية) والنهر الأصفر (في جنوبي الصين)، والبحر الأحمر وقصر الحمراء والبحر الأبيض المتوسط، والدار البيضاء، وعين البيضاء، والوادي الأبيض، والجبل الأخضر، وعين الخضراء، وعين الصفراء، وكان قصر كسرى في فارس يسمي القصر الأبيض واليوم يقال: البيت الأبيض الأمريكي.

وانتقلت الدلالـــة إلى المجـــاز على مـــر الزمان، وتوســـعت مـــعانيـــها، فقـــالوا(8): المولود صفحة بيضاء، وهذا حظه أبيض، وهو أبيض القلب (خال من الحقد والكراهة)، بيض الله وجهه (دعاء له بالفلاح)، وله علينا يد بيضاء (فضله علينا لا ينكر)، والدرهم الأبيض لليوم الأسود، وهو أسود القلب، وأفكاره سوداء، وليلة سوداء (كلها حـــزن

وآلام)، والـــذهب الأســود (البترول)، والليلـــة الحمــراء، والكــتب الصفــراء (القديمة)، والليلة البيضاء، والانقلاب الأبيض (دون دماء). وصار لبعــض الزعماء كتب ينعتــونها بـــألوان ذات صلــة بمحتـــواها، فهنــاك الكتاب الأخضر، والكتاب الأسود، والكتاب الأبيض، والكتاب الأحمر. كمــا صار اللون مميز الأنواع الجيوش، فالأخضــر لسلاح المشــاة، والأبيض لسلاح البحرية، والأزرق لسلاح الطيــران.. وكذلــك ميــزوا بالألـــوان إشارات المرور، فاللون الأحمر للمرور الممنوع، والأخضر للمرور المسموح به، والبرتقالي للانتباه والحذر.

مرجعيات العلم الوطني:الشكل واللون

مما لاشــك فيه أن للعلم الوطني مرجعيات دينيــة ووطنيــة واجتماعيــة وسياسية، تعاضدت فيما بينها، وتداخلت في معانيها لتشكل في النهاية الراية الرمز، فتصير بمرور الزمن، وتعاقب الأجيال ذات بعد وطني لا يجوز المساس به، والعدول عنه.

يتكون العلم الوطني من رقعة مربعة، مقسومة نصفين: أولهما أخضر، وثانيهما أبيض، يتوسطهما هلال ونجم أحمران. يرمز الهلال إلى الإسلام، فهو أصل التقويــم الهجــري، وأســاس حســاب الشهـــور والسنوات، يستعمل لتوقيت الفرائض كالصوم والحج وغيرها. وترمز النجمة الخماسية إلى أركــان الإسلام الخمســة، والصلـــوات الخمســة، والخلفــاء الــراشديــن الخمسة، وهي تخالف نجمة اليهود السداسية. فثمة فرق كبير بين الثقافتين.

إن اللون الأبيض يرمز إلى الجزائر، فيقال الجزائر البيضاء في مقابل تونس الخضراء والمغرب الحمراء، كما يرمز إلى السلام، وإلى الطهارة والصفاء والنقاء والاشراق والنور والتفاؤل والبــراءة، ووصف الإسلام بالمحجّـــة البيضـــاء، وتعلـــق المسلمــون بهذا الــلون فــي لباسهــم وبخاصــة فــي مــوسم الحج، وكان لواء الرسول (ص) يوم فتح مكة أبيض دلالة على الســلام، وهــو لــون أهــل الخيــر والسعادة. قال تعالى:﴿يوم تبيض وجوه﴾ آل عمران 106.

و يرمز اللون الأخضــر إلــى الخصب و النماء والتجدد والــرخاء والنعيــم والسعادة وهــو لــون شائــع فــي استعــمالات المسلميــن فــي المساجــد وفــي أضرحــة

الأولياء والصالحين، وهو لباس أهل الجنة. قال تعالى ﴿ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك، نعم الثواب وحسنت مرتفقا﴾ الكهف 31.

وما جزاء الشهداء إلا الجنة. قال أبو تمام في رثاء الشهيد ابن الطوسي:

تردى ثياب الموت حمرا، فما دجا لها الليل، إلا وهي من سندس خضر

ويرمز اللون الأحمر إلى الخطر والدم والجهاد والغضب، ويبرز الأشياء للرؤية، وقد استعملت الراية الحمراء في الجهاد زمن عمر بن الخطاب (ض) و كذلك في أيام الخلافة العثمانية وفي غيرها.. وهي رمز للحرية.قال شوقي:

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

وعرف العرب هذا اللون في الجهاد قديما، كما عرفوا اللون الأبيض في السلم، فقدروي عن عمر بن كلثوم أنه قال مفتخرا:[9]

أبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا

والمحصلة أن هذا العلم الوطني (الجزائري) يرمز بألوانه إلى وحدة المغرب العربي، ويستمد شكله وألوانه من الحضارة العربية الإسلامية التي ينتمي إليها، وهو يرمز إلى حياتين: حياة أولى بيضاء سمحة كالإسلام السمح، بيضاء كقلوب أهلها، بيضاء كأياديهم لا يحملون حقدا ولا عداوة، يسالمون كل من سالمهم ووَادعهم، وحياة أخرى في جنة خضراء، فيها السعادة والنعيم المقيم، ويفصل بينهما هلال ونجم أحمران يرمزان إلى الانتماء، ويوحيان بالجهاد المرير من أجل حريتهم وكرامتهم، اعتقادا منهم أن الحياة إما أن تكون حرة كريمة، وإما أن تكون شهادة. فهي كما قال أبو تمام:

تردى ثياب الموت حمرا، فما دجا لها الليل، إلا وهي من سندس خضر

مراجع وهوامش

1. د.أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 ، ص 189.

1- نفس المـــــــرجـــــــع ،ص 190.

2- د.شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي، عالم المعرفة (العدد 267)، مارس 2001 ، الكويت، ص 270.

3- د.أسعد علي، مسرح الجمال و الحب والفن في صميم الإنسان ، دار الرائد، بيروت، ط3 ، 1981، ص84,85.

4- د.شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي، مرجع سابق، ص272

5- د.محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة ، ط2 ، 1978، ص222.

6- قال ابن الهيثم: المعاني الجزئية التي تـــدرك بحاســـــة البصر كثيـــرة إلا أنـــــها تنقسم بالجملة إلى اثنين وعشرين قسما، وهي: اللون، والبعد، والوضع، والتجسم، والشكل، والعظم، والتفرق، والاتصال، والعدد، والحركة، والسكون، والخشونة، والملاسة، والشفيـــف، والكثافـــة، والظـــل، والظلمـــــة، والحسن، والقبح، والتشابه، والاختلاف، في جميع المعاني الجزئية على انـــفرادها، وفي جميع الصور المركبة من المعاني الجزئية، فهذه هي جميع المعاني التي تدرك بحاسة البصر.

كتاب المناظرات.المقالات.3.2.1 من الابصار على الاستقامة، تحقيق عبد المجيد صبرة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1982، ص230.

7- سليم عباسي، اللون(تأثيره في الناس..)، مجلة بناة الأجيال،العدد39، سوريا، ص120 وما بعدها.